عرض الكتب

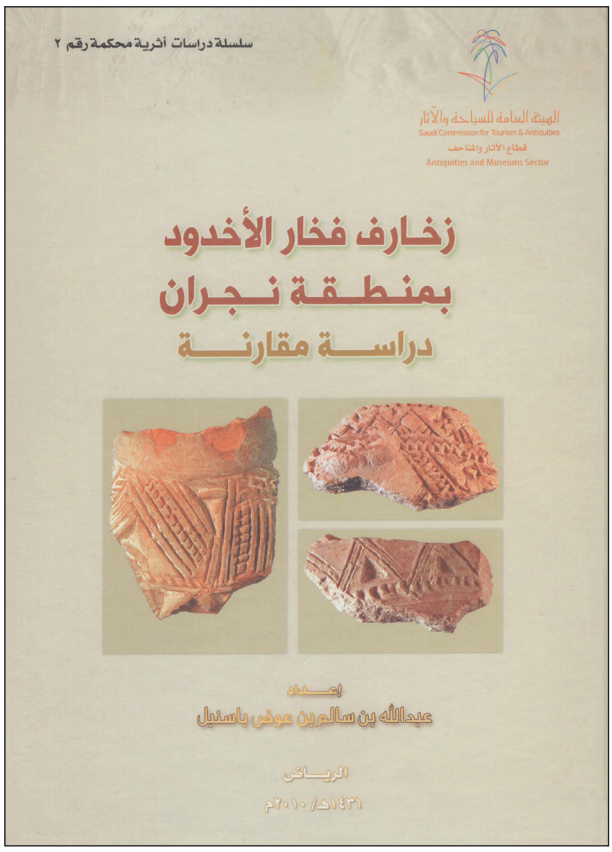

زخارف فخار الأخدود بمنطقة نجران
دراسة مقارنة

المؤلف: د. عبدالله بن سالم باسنبل

الناشر: الهيئة العامة للسياحة والآثار : قطاع الآثار والمتاحف، المملكة العربية السعودية.

سنة النشر: ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م

مقاس الكتاب: ٢١ × ٢٩ سم

عدد الصفحات: ٤٦١ صفحة.

ردمك: ٤٥ - ٨٠٢٢ -٦٠٣-٩٧٨

عرض: أ. د. عبد الرحيم محمد خبير.

يشتمل الكتاب على أربعة فصول بما فيها المقدمة، إضافة إلى الخاتمة، وقائمة المراجع، والملاحق (خرائط وأشكال ولوحات). وقد خصصت المقدمة التمهيدية للحديث عن الموقع الجغرافي لمنطقة نجران وموقع الأخدود الأثري، موضوع الدراسة. وأشار الكاتب إلى أن نجران جغرافيًا تقع في الجزء الجنوبي الغربي من المملكة العربية السعودية في الطرف الشرقي لمنطقة الدرع الجيلوجي العربي (The Arabian Shield) بين دائرتي عرض (32° و 17°) وخطي طول (12° 44° -)، ويخترقها وادي نجران من الغرب إلى الشرق، ليصب في رمال صحراء الربع الخالي. وتعد هذه المنطقة من أهم المناطق في المملكة التي تضم أشهر المواقع الأثرية وأهمها، التي تعود لفترات عصور ما قبل التاريخ. وعصور الممالك العربية القديمة، وعصور الممالك الإسلامية، كما تشتهر بالقلاع والحصون التاريخية ذات الطابع المعماري الفريد.

ويعد موقع الأخدود من أبرز المواقع الأثرية في المملكة، باعتباره محطة تجارية مهمة نشأت لتصبح مدينة كبيرة، لها أهميتها السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والدينية بين مراكز الحضارات القديمة في جنوبي الجزيرة العربية ووسطها وشمالها، فضلًا عن تناولها في القرآن الكريم في سورة البروج عند ذكر حادثة قتل أصحاب الأخدود.

وخصص الفصل الأول (الصفحات ١٩-٤١) للإطار النظري والتاريخي لمنطقة الدراسة، إذ تطرق الباحث

للخلفية الجغرافية لموقع منطقة نجران؛ حدودها الجغرافية داخل المملكة، وتضاريسها الطبيعية، ومسمى نجران، فضلًا عن الطرق التجارية التي تمر بها، ثم تعريف القارىء بموقع الأخدود الأثري.

ولم يغفل الكاتب التنويه بأن نجران التاريخية قد ذكرها العديد من المؤرخين والجغرافيين متطرقين إلى موقعها الإستراتيجي، وتراثها الاقتصادي ونشاطها الاجتماعي، وأنها كانت مركزًا تجاريًا مهمًا لممالك جنوبي الجزيرة العربية (معين، وسبأ، وحضرموت، وقتبان).

ومن ناحية آثارية، فقد ذكرت نجران القديمة في العديد من النقوش التي تحدثت عن الحروب والغزوات الحربية في جنوبي جزيرة العرب؛ ما جعل نفرًا من المؤرخين (جواد علي مثالًا) -استنادًا إلى تلك الكتابات- يربطها ببعض ممالك جنوبي الجزيرة العربية، وأنها كانت حاضرة لمملكة صغيرة هي مملكة مهأهرم أو مهامر.

وتباينت الروايات التاريخية عن الحياة الدينية في نجران القديمة. وتشير العديد من المصادر إلى أن أهلها كانوا عبدة أوثان، مثل سائر الشعوب العربية المجاورة لهم، وفي فترة لاحقة اعتنقوا النصرانية (المسيحية) التي سبقت اليهودية في هذه المنطقة. وتشير روايات سريانية إلى دخول النصرانية نجران عبر التجارة من القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، ومنها انتشرت في الحيرة ومراكز حضارية عديدة في جنوبي جزيرة العرب. وجدير بالذكر هنا أن بلوغ النصرانية نجران قد أشار إليه عدد غير قليل من المؤرخين المسلمين أمثال ابن الأثير في كتابه الموسوم بـ «الكامل في التاريخ»، والطبري في مؤلفه «تاريخ الطبري»، وياقوت الحموي في «معجم البلدان»، وابن هشام في كتابه «السيرة النبوية»، وغيرهم.

وأشارت مصادر إسلامية كثيرة إلى قصة أصحاب الأخدود وتعذيبهم من قبل الملك الحميري، ذو نواس (يوسف أثار). وذكر أنه اعتنق اليهودية. غير أن النقوش العربية الجنوبية المؤرخة لعهد هذا الملك لا تؤيد اعتناقه لهذه العقيدة.

أفرد الفصل الثاني (الصفحات ٤٢-١٠٩) لدراسة المادة الفخارية من موقع الأخدود الأثري. ويقع الموقع في مساحة كبيرة مستطيلة الشكل أضلاعها غير منتظمة وتبلغ مساحته (٢٣٥ مترًا مربعًا). وهذه المساحة المستطيلة تمثل جدارًا خارجيًا كبيرًا يمثل نمطية الأسوار التي كانت معروفة فى جنوبي الجزيرة العربية. ويوجد داخل هذا المستطيل عدد كبير من المباني ذات الأسلوب البنائي المميز.

وأجريت الدراسة لفخاريات هذا الموقع على عينة بلغت (٢١٥) قطعة تتشكل من أواني كاملة، شبه كاملة وشقف بأحجام وألوان مختلفة، مأخوذة من ملتقطات سطحية، ومجسات اختبارية لطبقات استيطانية تم تنقيبها في أوقات متباعدة (١٩٨٠، ١٩٨٢، ١٩٩٦، ٢٠٠٠م) بواسطة الهيئة العامة للسياحة والآثار - قطاع الآثار والمتاحف (وكالة الآثار والمتاحف سابقًا). وأمدنا مؤلف الكتاب بوصف تفصيلي للأواني الفخارية استنادًا إلى مربعات العثور بالموقع، الأشكال، الصناعة، الزخارف المعالجة السطحية، الحرق والصلابة.

تحدث الفصل الثالث (الصفحات ١١٠-١٣٣) عن الدراسة التحليلية التي تشمل مدلولات العناصر الزخرفية والتأثيرات الفنية على زخارف فخار الأخدود. وأبان أن القطع المختارة للدراسة صنع معظمها بالدولاب أو العجلة مع اختلاف في الصنعة التي عزاها لنوع الدولاب أو العجلة من حيث كونها بدائية ويدوية أو أنها متطورة وسريعة، إذ يحمل بعضها علامات استدارة الدولاب الفخاري بشكل جلي.

وخلص الباحث إلى أن العناصر الزخرفية متنوعة ومتعددة وأبرزها عنصر الشبكة، يليه المعين الهندسي بوضعيات متباينة، فالمثلث. ويلي ذلك عناصر أخرى تضم خطوطًا متكررة تمثل أنماطا هندسية، وأشكال

حيوانات. كما ظهرت أشكال بيضاوية، دائرية، هلالية، وأخرى حلزونية، وقمعية، أو على هيئة السندان، أو المسمار.

خُصص الفصل الرابع (الصفحات ١٣٤-٢٨٠) للدراسة المقارنة لهذه العناصر الزخرفية لموقع الأخدود مع ما يشابها أو يماثلها في المواقع الأخرى داخل المملكة العربية السعودية أو خارجها. وتشمل هذه المواقع في شماليها (العلا، والقصيم، والجوف) وشماليها الغربي (تيماء، وتبوك، ووادي شرقة)، وجنوبيها وغربيها (تهامة، ونجران، وجيزان)، وفي المنطقة الوسطى (الخرج، والأفلاج، والخماسين، وقرية الفاو بوادي الدواسر) وغربيها (جبال الحجاز) وشرقيها (عين قناص، والدوسرية، والدفي، ثاج، وأبو خميس، والظهران). وفي دولة الإمارات العربية المتحدة (الشارقة، ورأس الخيمة، وأم القوين، والعين، والحمرية، وهيلي، وجزيرة غضاضة، وسهل الملام). وفي سلطنة عُمان (مسقط، وصحار، وأملح، وطوى سعيد)، وفي اليمن (هجر بن حميد، وشبوة، وأبين، ومأرب، ووادي بيحان)، وفي فلسطين (أريحا)، وفي سوريا (درعا بشمال شرقي البلاد) والعراق (مواقع حضارة العُبيد بجنوب الرافدين).

وخصصت بقية صفحات الكتاب للملاحق (٢٨١-٤٣٤) والمراجع (٤٣٥-٤٦١).

وبإمكاننا القول، إن أهم مخرجات هذه الدراسة التحليلية لفخاريات موقع الأخدود إتسامها بالشمولية. في التصنيف الزخرفي وتبيان دلالاته الثقافية والحضارية التي تتمثل في صلات تاريخية بين مختلف الأقوام التي قطنت جنوبي الجزيرة العربية، ذات الأهمية - الجيوسياسية، منذ آجال موغلة في القدم، سابقة للعصر الإسلامي وفي بواكيره الأولى.

وبرغم أهمية هذا البحث الآثاري لزخارف الأواني الفخارية (أنواعها وعناصرها وصناعتها) وإيلائه حيزًا غير قليل لمعيار اللون التصنيفي، إلا إنه إفتقر إلى استخدام مقياس موضوعي للألوان، متعارف عليه عالميًا، هو مدرج منسل للألوان (Munsell Soil Color Chart 1975). ويستند هذا المقياس إلى ثلاثة معايير هي : اللون الأساسي (Hue)، ودرجة الإظلام (Value)، وكثافة اللون (Chroma). وأهمية هذا المقياس إنه يمكّن الباحث من التعرف على اللون بشكل محايد، سيما وأن العين المجردة ليست معيارًا موضوعيًا يعتد به لاستبانة أنواع الألوان، نظرًا لاختلاف مستويات النظر لدى الأفراد.

ونلحظ أن الدراسة المقارنة سواء على المستوى المحلي مع الفخار النظير بداخل المملكة العربية السعودية، أو خارجها مع الدول المجاورة، قد اتسمت بالعمومية. فلم تدعم هذه المقاربات بأشكال أو لوحات إيضاحية لزخارف فخارية تلك الأمصار التي لها ما يضاهيها بموقع الأخدود.

ومهما يكن من شأن، فإن هذا الإصدار العلمي عن فخار الأخدود بمنطقة نجران ذو أهمية لا تخفى في مجال الدراسات الآثارية التوثيقية لحضارات الجزيرة العربية، بوجه عام، والمملكة العربية السعودية، على وجه التخصيص في حقبة ما قبل الإسلام وفجره. ولا بد أن نشير هنا أنها ستكون مرجعًا مهمًا للباحثين في مجال الفخار الأثري لسنوات عديدة آتية. وجدير بالتنويه أن هذا العمل الأكاديمي والذى قدم أصلا أطروحة لنيل درجة الماجستير بقسم الآثار والمتاحف، كلية السياحة والآثار بجامعة الملك سعود في الرياض قد سطر بلغة عربية سليمة وبأسلوب جاذب، ما يجعله في متناول المتلقي، سواء أكان متخصصًا أم قارئًا. وهو بلا ريب إضافة نوعية للمكتبة الآثارية العربية، تجد كل الترحاب[1].

(١)) أ. د. عبد الرحيم محمد خبير - قسم الآثار - كلية العلوم الإنسانية بجامعة بحري - السودان، ص .ب ١٦٦٠ الخرطوم.
الإيميل : E-mail.Khabirabdelrahim@gmail.com